بحث عام | قسم الدراسات الدينية | 30 يناير 2018

التصوّف الإسلامي:
الجذور والتاريخ

حسين شاكر باحث سوري
عبّاس علي موسى باحث سوري

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018
All rights reserved © 2018

الملخّص:

إنّ البحث يأخذ التصوّف ككتلة واحدة معنيا بالجانب المتعلّق بظروف نشأته وما تطوّر من طقوسه وخاصة المتعلّقة بالسرية والباطنية، وهو مشترك بين صنفي التصوّف (الذاتي والطريقي) على حدّ سواء، وكيف أنّه نتج كردّة فعل على «««الفتح الإسلامي»»» والتصادم ما بين الديانات القديمة والجديد المتمثّل بالإسلام.

فمما لاشكّ فيه أنّ التصوّف بتنويعاته المختلفة كان ولا يزال محطّ الدراسة والبحث، وبالعودة إلى التاريخ الإسلامي وتتبّع جذور التصوّف ونشأته أو تبلوره في بيئات خصبة بأثر الديانات القديمة يجد الباحث نفسه، وهو يرى تصوّفا يشوبه مع الإسلام أثر لديانات متعددة من السهل تلمّسها في الطقوس والدلالات التي يرتكز عليها المتصوّفة، ويركز المبحث على العراق كمنبع للتصوّف الإسلامي بما له من أثر في تبلور معظم مناهج التصوّف وطرقه، وخروج التصوّف من حالة فردانية إلى حالة أشبه ما تكون بدين داخل دين.

يحاول المبحث رصد التصوّف الإسلامي لمعرفة جذوره، والتأكيد على مغايرته للإسلام في جوهر تنزيله، دون الخوض في مسألة كونهم - المتصوّفة - مسلمين مارقين أو لا؛ أي عدم تبنّي رأي ديني حيالهم، وهو ما حاول البحث درسه والإجابة عن التساؤلات المتعلّقة بتكوينه الأول أو على الأقل معرفة جذوره، وما آل إليه بعد ذلك نتيجة الظروف السياسية والاجتماعية، ثم الوقوف على التأثير الإيراني فيه، وواقع التصوّف اليوم، والتركيز على مبدأ التقية والباطنية المشتركة ما بين الطوائف والفرق الإسلامية التي يُثار النقاش الحديث حول إسلاميتها، وبين التصوّف، مع أنّ التصوّف ليس بطائفة.

مقدمة:

كان التصوّف ولا يزال محطّ الدراسة والبحث، بخاصة بعد أن اهتمّ المستشرقون به، باعتباره يمثّل جانبا مختلفا ومميّزا في تاريخ الإسلام، ومع الكمّ الكبير من الدراسات نجد أنّها تهتم بجوانب منها الجانب الذي يعتبر التصوّف حالة روحانية تسعى إلى الانعتاق وهمّها الجمال والعرفان. وهذا الجانب تناوله المستشرقون بصفة خاصة. ومنها أيضا جانب اهتمّ بالتصوّف، باعتباره صادرا عن منهج خارج عن الدين الإسلامي وجادة الصواب، وهؤلاء هم من السلفيين ممّن يُشيرون إلى الصوفية كمنهج يدعو إلى البدع والابتعاد عن حقيقة وجوهر ما جاء به الإسلام، وجانب تناول الصوفية، باعتباره منهجا إسلاميا يهتمّ بالجانب الروحي عن طريق الصوفية وطرقها، وهي وجدت في الإسلام ما توافقها للوصول إلى حقيقة دعواها.

وبين هذه الجوانب الثلاثة ثمة طريقة علمية تحليلية للبحث تحاول رصد التصوّف الإسلامي لمعرفة جذوره، والتأكيد على مغايرته للإسلام في جوهر تنزيله، دون الخوض في مسألة كونهم مسلمين مارقين أو لا؛ أي عدم تبنّي رأي ديني حيالهم، وهو ما حاول البحث درسه والإجابة عن التساؤلات المتعلّقة بتكوينه الأول أو على الأقل معرفة جذوره، وما آل إليه بعد ذلك نتيجة الظروف السياسية والاجتماعية، ثم الوقوف على التأثير الإيراني فيه، وواقع التصوّف اليوم، والتركيز على مبدأ التقية والباطنية المشتركة ما بين الطوائف والفرق الإسلامية التي يُثار النقاش الحديث حول إسلاميتها وبين التصوّف، مع أنّ التصوّف ليس بطائفة.

أخيرا ينبغي أنّ نعرف أنّ التصوّف المتمثّل بالطرق الصوفية والتي تتألّف من شيخ طريقة ومريدين ومنهج وأتباع وسلوك، كما نجدها في الطرق النقشبندية والرافعية والشاذلية، مختلف عن التصوّف أو العرفان الذاتي الذي دان به الكثير من المتصوّفة من أمثال ابن الفارض والملا الجزري وجلال الدين الرومي.

إنّ البحث يأخذ التصوّف ككتلة واحدة معتنيا بالجانب المتعلّق بظروف نشأته وما تطوّر من طقوسه وخاصة المتعلّقة بالسرية والباطنية، وهو مشترك بين صنفي التصوّف (الذاتي والطريقي) على حدّ سواء.

الأديان والصراع الديني في العراق قبل دخول الإسلام

ما يعرف اليوم بسوريا والعراق، كانتا منطقتين على تخوم كلّ من الإمبراطورية الرومانية والفارسية، كذلك كانتا- حسب التاريخ القديم - منبعا لتطوّرات البشر ومهدا للأساطير، وبداية تشكّل الدول والقوانين، ومهدا للديانات السماوية الثلاث، وفيما تلقى الديانتان المسيحية واليهودية اهتماما من المؤرّخين، فليس ثمة اهتمام بما فيه الكفاية على الديانات الأخرى، والتي كانت منتشرة في إيران وعموم العراق؛ كالديانة المجوسية، والتي يعتبرها بعض المؤرخين ديانة وثنية؛ بينما هناك حديث نبويّ عن مجوس البحرين،

وأنّ الرسول قال فيهم: «سنّوا بهم سنّة أهل الكتاب»[1] بينما تأخذ هذه الديانة جذورها من «الميثرائية» فالزردشتية، والتي يتضح تأثيرها في الديانات السماوية، ولأسباب سياسية ربما لا يجري البحث في تلك الديانات السابقة للديانات السماوية، ومدى تأثيرها في الحضارة، والسبب وراء ذلك يرتبط بجذور الصراع بين الشرق والغرب، لاسيّما في العصر الحديث والتقدم التقني والصناعي الذي ظهر في الغرب، ما يجعل الأكاديميين يتصوّرون أنّ الأديان السماوية هي فقط اليهودية والمسيحية والإسلام، وتغضّ الطرف عن مئات الأعوام التي تطوّرت فيها الحضارة الإنسانية في العراق وإيران وحتّى في سوريا، نتيجة للتواجد الساساني في سوريا القديمة، والتي يُشير إليها النصّ القرآني (مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ) [غافر 78]، (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً) [النحل 36]، والإيرانيون كانوا أمّة.

ظهر النزاع والصدام بين الإمبراطورتين، والذي أخذ منحى دينيا[2]، وهذا الصراع أدى إلى تمازج حضاري وتأثير ديني متبادل قبل مجيء الإسلام، وأسبقية «الفتح الإسلامي» في العراق، وتحوّل العراق إلى مركز علمي بسبب «الفتح الإسلامي» من جهة والاندماج بين المكوّنات المختلفة من جهة أخرى، حيث اكتملت فيه الديانة السماوية الثالثة والأخيرة، حيث بات يجتمع في العراق كل الإرث الحضاري والديني، فالتنوع الإثني والديني جعل من العراق منبعا محتملا لظهور التصوّف كحصيلة لتزاوج القديم والجديد.

كانت الإمبراطورية الساسانية تحكُم العراق بكل ما فيه من تنوّع اثني وديني، وكان النزاع بين الساسانيين والروم البيزنطيين استمرارا لحروب الشرق والغرب (إيران واليونان)، ولكنّها بدأت تأخذ طابعا دينيا عندما تبنّى قسطنطين الكبير الديانة المسيحية كدين رسمي للإمبراطورية الرومانية[3]، وتجلّى الصراع الديني في عهد خسرو شاه عندما طرد البيزنطيين من معظم الشرق، فقد طردهم منذ 611 م من أنطاكية وطرطوس ودمشق، واستولى على بيت المقدس ودمّر كنيسة القيامة التي شيّدها قسطنطين الكبير، ثم استولى الساسانيون على «صليب الصلبوت» (الصليب المقدّس) ونقلوه إلى عاصمتهم المدائن، فقام الإمبراطور البيزنطي هرقل الأول 610-641 م بإعلان الحرب لاستعادة بيت المقدس والصليب المقدس، واستمرت الحرب لسبع سنوات 622-628 م واستطاع استعادة ما سيطر عليه الساسانيون.[4]

كانت النزاعات بين الفرس والروم لها وجه إيديولوجي، وكانت تتخذ من الصليب رمزا للانتصار، ونظر هرقل إلى خسرو على أنّه عدو الرب، ولقد كان للروم بعد تبنّي المسيحية تأثير على بقية الديانات القديمة التي ظهرت في العراق وإيران، ويأخذ هذا التأثير شكلين؛ أولهما أنّ تلك الديانات بدت على أنّها ديانات وثنية، وثانيهما أنّ تلك الديانات تسقِط رموزا من المسيحية في ديانتها، ربما جاءت الرموز نتيجة حرب السبع

1 يُنظر في كتاب: موطأ الإمام مالك، باب جزية أهل الكتاب 699. موطأ الإمام مالك، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، المجلد 2، ط 1 (أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية، 2004) ص 395

2 طه باقر وآخرون، تاريخ إيران القديم (بغداد، مطبعة جامعة بغداد، ١٩٧٢)، ص 130

3السيد الباز العريني، الدولة البيزنطية (بيروت – لبنان، دار النهضة العربية، د.ت) ص 19

4 طه باقر، مصدر سابق، ص13

سنوات بين روما البيزنطية والساسانيين المجوس، وهنا السؤال الذي لابدّ لنا أن نبحث في الإجابة عنه ألا وهو: ماهي تلك الديانات التي تأثرت بالديانات السماوية أو كانت متزامنة لها على أقل تقدير؟[5]

- المندائية (الصابئة)

اتخذ المندائيون على مدى زمن طويل من الصمت، ومن لغتهم المندائية الغامضة على المحيطين بهم من الأديان الأخرى، سبيلا إلى البقاء والحفاظ على كيانهم الديني، فهي «جماعة عرقية ودينية قطنت ضفاف دجلة والفرات وسط وجنوب العراق ونهر الكارون غرب إيران، ولعبت دورا مهّما في الإنتاج: صناعة القوارب وآلات الحدادة وصياغة المينا؛ النقش على الفضة».[6]

أشارت كتابات الصابئة إلى الاعتقاد بأنّ المعرفة والعلم الربّاني، إنما يؤتيه الله عباده المختارين الصادقين، إمّا وحيا وإمّا إلهاما، وذلك هو صوت الحيّ الأقدم، أو فيضا سماويا وكشفا، أو بواسطة رسل أثيريين ونورانيين، وهذا يؤكّد تعصّب المندائيين «الصابئة» للروحانية، ولهذا لا يهتمّون بالمقابر والأضرحة التي تخلّد صفوة القوم، ليس تماما مثل ما يذهب إليه المسلمون من الحنابلة وأتباع الشيخ محمد بن عبد الوهّاب، إنّما فرضته عليهم فلسفتهم في الروحانيات، واحتقارهم للجسد، وتقترب الديانتان المندائية والبابلية في أسطورة الخلق، ورد في كتاب (الكنزا ربا) ما يقابل (إنوما إليش) البابلية؛ وملخّصها أنّ الكون كان المياه الأولى ولا شيء غيرها، وحدث أن ظهرت الآلهة العظام جيلا بعد جيل، حتى جاء الإله خالق البشر، فحدثت الحرب بين العالم العلوي (وليكن عالم النور عند المندائيين) والعالم السفلي (وليكن عالم الظلام) التي تمثّله (تي امت) عند البابليين والروهة وأولادها عند المندائيين، فيقتل الإله مردوخ تتي امت، ويقضي على فلولها الشريرة، وبالمقابل عند المندائين يقضي الملاك «هيبل زيوا» على كائنات الظلام «الروهة» وأولادها السبعة، ويخلق «ابثاهيل» بأمر الحيّ الأزلي، الإنسان وهو آدم.

كذلك ورد في (الكنزا ربا) «سمح للعظيم بعظمته أن أنشر النور والضياء» وهناك نصوص مندائية تحذّر من عبادة الكواكب والنجوم والشرك بشكل عام؛ مثلا لم أسجد لربّين، بينما النجوم والكواكب متعددة.[7]

- الإيزيدية

وإن كانت الإزيدية غير موجودة بصورتها الحالية قبل «الفتح الإسلامي»، ولكنّها ودون شك امتداد لما دان به الكرد قبل «الفتح الإسلامي»، وقد وصلت الإيزيدية إلى صورتها الحالية نتيجة تأثرها بكلّ الأديان

5 د. عمر يحي محمد، قراءة جديدة لآخر جولات الصراع بين القوتين العظميين في العصور الوسطى، منشورات جامعة الملك عبد العزيز، ص 41

6 انظر: رشيد الخيوّن، الأديان والمذاهب بالعراق، فصل المندائية، ط 1 (دبي – الإمارات العربية المتحدة، مركز المسبار للدراسات والبحوث، 2016).

7 رشيد الخيوّن، الأديان والمذاهب بالعراق، ط 1 (دبي – الإمارات العربية المتحدة، مركز المسبار للدراسات والبحوث، 2016) ص 42

التي استجدت في العراق بعدها، وربما تكون الإيزيدية هي الاستمرارية للأديان التي لا تعتبر ديانات سماوية كما أسلفنا، ويختلف الباحثون حول أصل هذه الديانة أهي زرادشتية أم أنّها تعود للميثرائية؛ الأقدم من الزرادشتية. وهذا رأي يذكره الدكتور توفيق وهبي ويوافقه عليه الكاتب فلك الدين كاكائي، وهو أنّ الإيزيدية تعود في أصولها إلى الميثرائية، وإن كانت هناك دلالات حول تأثُّر الإيزيدية بالزرادشتية، وذلك أنّ هناك معارك قامت بين الميثرائية والزردشتية في منطقة بهدينان (إقليم كردستان العراق حاليا)، وكان الانتصار فيها للديانة الزردشتية، وهذا يوضّح السبب وراء تأثُّر الإيزيدية بالديانة الزردشتية.[8]

يعود الفضل في استمرار وجود الإيزيديين ككيان ديني واجتماعي إلى جبل سنجار ووادي لالش الحصينين في منطقة شيخان في شماليّ العراق حاليا، حيث احتمى الإيزيديون من فتاوى القتل الجماعي التي أصدرتها بحقهم الإدارة العثمانية، وألحقت فتاواهم بغارات مباشرة عسكرية، وحتى قبل فترة الحكم العثماني، اعتبرهم تقي الدين بن تيمية مسلمين مرتدّين ودعاهم للعدول عن عقائدهم، وإنّ مصيرهم هو مصير المرتدّ عن الدين.[9]

والقصد من ذكر الديانة المندائية والإيزيدية التي يعتبرها الكثير من الباحثين استمرارا للديانة الميثرائية. فالزردشتية قبل ما يُسمّى بـ «الفتح الإسلامي» كون هذين الدينين من أقدم الأديان؛ فالمندائية تعود جذورها إلى العهد البابلي المرتبط بالعصر القديم للعراق والديانة الإيزيدية التي تعود بجذورها إلى الديانة الميثرائية والزردشتية. فهاتان الديانتان استمرار للحضارة العراقية وحافظتا على وجودهما، رغم مرور العديد من الديانات و«الفاتحين» الذين مرّوا بها.

كما أنّ الديانة اليهودية تواجدت في العراق منذ عصر السبي وحتى ما قبل تنفيذ وعد بلفور في فلسطين[10]، وكذلك الديانة المسيحية تواجدت في العراق في العهد الساساني، حيث كانت المجوسية ديانة الدولة بشكل رسمي، إلا أنّ المجوسية لم تكن ديانة تبشيرية، وكانت تتقبّل العيش مع بقية الديانات في العراق، ولم تتعرض الإمبراطورية الساسانية للمسيحيين في العراق إلاّ عندما تبنّى الروم المسيحية كدين رسمي للإمبراطورية في عهد قسطنطين، ولهذا تعرّض مسيحيو العراق للاضطهاد على أيد الساسانيين المجوس لبعض الوقت.[11]

مما تقدم يبدو أنّ العراق احتوى الميثولوجيا التي انبثقت عنها بعض الديانات والفلسفات كذلك. احتوى العراق الديانات التي كانت منبعها آريا كالميثرائية والزردشتية والمجوسية، والديانات السماوية؛ اليهودية

8 توفيق وهبي، الأيزيدية بقايا الميثرائية، ترجمة: شوكت ملا إسماعيل حسن (كردستان – السليمانية، دار سردم للطباعة، 2010) ص 13

9 رشيد الخيوّن، مصدر سابق ص 233

10 أحمد سوسة، ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق (بيروت – لبنان، دار الساقي، ط 1 2001). ص 15

11 د. عمر يحي محمد، مصدر سابق، ص 18

والمسيحية والإسلام بعد «الفتح الإسلامي»، ولهذا فإنّنا نعتقد أنّ التصوّف «الإسلامي» مزيج من الماضي والحاضر العراقي؛ أي أنّ التصوّف تزاوج للجديد والقديم أدّى الى إنتاج التصوّف الإسلامي.

لقد استطاعت الخلافة الإسلامية على طول مدّة حكمها وتنوّعها الحفاظ على نوع من التعايش مع بقية الأديان الموجودة في العراق، وإن كانت تتعرض تلك الأديان للاضطهاد حسب الحاكم وقراءاته وظروفه، إلاّ أنّ وجود الأديان المختلفة والطوائف المختلفة في العراق إلى يومنا هذا يدلّ على أنّ الإسلام لم يستأصل الأديان الأخرى، ونبع ذلك من أنّ الإسلام يرى نفسه مكمّلا لتلك الأديان، وأنّ فحوى رسالته لا تختلف عن البقية –اليهودية والمسيحية-وفي النص القرآني آيات عديدة تتحدّث عن الأديان السماوية وغيرها من الأديان كالصابئة، والنصرانية والمجوسية والوثنية، واليهودية: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) [الحج: 17].

وبعد «الفتح الإسلامي» حدث أن حار عمر بن الخطاب في شأن المجوس، فقال عبد الرحمن بن عوف: «أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: سنّوا بهم سنّة أهل الكتاب»[12]، وقد ثبت أنّ النبي محمّدا أخذ من مجوس البحرين الجزية.

العراق بعد ««الفتح الإسلامي»»

كنّا أشرنا في المقدّمة أنّ الإسلام يعتبر نفسه استكمالا لبقية الشرائع السماوية، وورد في القرآن أنّه ما من أمّة إلا وأرسل الله فيها رسولا، وكذلك نجد في القرآن أنّ هناك رسلا مذكورين في القرآن وآخرين لم يتم ذكرهم. عندما دخل الفاتحون المسلمون إلى العراق وإيران جاؤوا، وهم يعلمون أنّهم استمرار لما قبلهم من الديانات السماوية، وربّما فهموا أنّ ما يرونه من أديان موجودة قبلهم في العراق قد تكون ديانات سماوية لم يذكرها القرآن الكريم، وبالرغم من الصراع بين الإسلام «الدين الجديد» وبقية الأديان القديمة، فقد استطاع القديم وعن طريق التقيّة والباطنية أن يتعايش مع الجديد. أمّا الجديد، فبالاستناد إلى ما لديه من نصوص لا تنكر القديم، استطاع أن يتعايش مع القديم، ولأجل استتباب الحكم الجديد، كان على حاملي الدين الجديد أن يتقبّلوا القديم في إطار ملائم لا يتعارض مع ثوابتهم، فأفرزت هذه الحالة نوعا من التمازج، ربما يمكن أن نسمّيها (التصوّف) أو نُعدّ التصوّف من بينها، فالتصوف يبدو وكأنّه القاسم المشترك بين كلّ أشكال الإفراز الذي جاء نتيجة التصادم أو التزاوج بين القديم والجديد.

لم يكن المسلمون «الفاتحون» منغلقين على ما عندهم من عقائد وثوابت، ولم يكونوا يجهلون الأديان الموجودة قبل فتوحاتهم، فقد كان أهّم من يمكن تسميته بمستشار النبي محمد هو «سلمان الفارسي «والذي

12 أخرجه مالك في "الموطأ" (42/278/1) ومن طريقه الشافعي (1182) وكذا البيهقي (189/9)، وقال الألباني ت 1420هـ عن هذا الحديث أنّه ضعيف، وذلك في إرواء الغليل "1248".

كان إضافة إلى كونه مستشارا عسكريا له، مُشيرا إليه بكلّ ما يعرفه عن طبيعة المحيط بأرض الإسلام التي كانت تتوسّع، حيث تقول عائشة: (كان لسلمان مجلسٌ مع الرسول ينفرد به بالليل حتى كاد يغلبنا عليه).[13] وقد صار سلمان الفارسي واليا على المدائن بعد الفتح، ولا بد أنّ سلمانا كان متفهّما لما هو متوافق مع الدين الإسلامي وما هو مخالف له، ولربما كان سلمان، صاحب التجربة مع المجوسية والمسيحية والإسلام، عالِما بروح الدين. ولن يخفى عليه كثيرا معنى أنّ الإسلام استمرار للرسائل الدينية التي سبقت الإسلام، ولأنّه من عرق إيراني، فلن تكون لديه حساسية لما هو غير عربي، وهذا ما دعا عمر بن الخطاب إلى تعيينه واليا على المدائن، وللناظر إلى سلوك سلمان الفارسي من زهد بالدنيا وتقشّف فيها، يرى فيه فحوى الصوفية وجوهرها.

من خلال ولاية سلمان الفارسي على المدائن يمكننا أن نجد الصلة بين الإسلام والمجوسية، وكان في العراق اليهود والمسيحيون قبل دخول الإسلام، وتعود جذور اليهودية في العراق إلى عهد السبي، وكانت العلاقة بين المجوس واليهود على حساب الصراع المستمر بين الفرس والروم على مدى سبعة قرون، خصوصا عندما تبنّى الروم المسيحية كدين رسمي للإمبراطورية، سنجد محاباة وتقاربا بين اليهود والساسانيين الذين استشعروا خطر المسيحيين في العراق، واعتبروهم جواسيسَ للروم البيزنطيين، ومع مجيئ الإسلام صار الإسلام المنقِذ للمسيحيين، لاسيّما أنّ القرآن يحتوي العديد من الآيات عن المسيحية.

كذلك نجد آية قرآنية تشمل كثيرا من الأديان الموجودة في العراق قبيل دخول الإسلام (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) [البقرة 62].

من خلال ما سلف، يمكننا القول إنّ الإسلام جاء إلى العراق بنسخة دينية جديدة مكمّلة لما سبقها، ومجدِّدة لبعض المسائل؛ كتوحيد الخالق وعدم الإشراك به، وعلى الرغم من أنّ الحكم الإسلامي كان متفهّما لكونه دينا مكمِّلا لما قبله، ولكن نظرة معتنقي تلك الديانات للدين الجديد صاحب السلطان لم تكن كذلك دوما أو أبدا، فهي نظرت إلى الإسلام كقوة احتلال أحيانا، وما أسهم في ذلك أيضا بعض تصرّفات «الفاتحين» الجُدد الذي أسهموا في تعميق نظر أولئك للإسلام كقوة احتلال.

كذلك علينا الوقوف عند التعدّد العرقي الموجود في العراق قبيل دخول المسلمين إليها، وصعوبة التواصل في ذلك العصر؛ فاللذين دخلوا هذا الدين لم يستطيعوا فهم الدين من ناحية جوهرية بسبب عائق اللغة وخاصة في الأماكن البعيدة عن السيطرة المباشرة.

13 أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب في معرفة الأصحاب، (192/1).

كذلك علينا أن ننظر بعناية إلى الحكّام في الإمبراطورية الساسانية وحلفائها من الإقطاعيين، فقد حكم الإيرانيون العراق مئات الأعوام، وكان لهم دين رسمي، فليس من السهولة بمكان إزالة إرثهم العقائدي والديني[14]، كما أشرنا سابقا إلى أنّ الصابئة (أو ما يعرفون بالمندائيين) وصلتهم بالبابليين والسومريين، وكيف استطاعت هذه الديانة الحفاظ على نفسها، رغم مرور العديد من الحكام والديانات على البقعة الجغرافية التي تواجدت فيها هذه الديانة، كما أشرنا إلى الإيزيديين الذين يعتبرهم الكثير من الباحثين استمرارية للميثرائية فالزردشتية وتأثروا بها. وعندما جاء الإسلام كان سكان الجغرافية التي تواجد فيها الكرد والفرس يعتنقون الديانة الزردشتية في معظمهم.

كذلك استطاعت هذه الديانة الحفاظ على نفسها، وبعض من ركائزها، رغم مرور الكثير من «الفاتحين» عليها، ولا نستطيع إنكار التأثّر الواضح بالأديان الجديدة لدى كلّ من الإيزيدية والصابئة، ولكن في ذات الوقت لا يمكننا أيضا أن ننكر أنّها ديانات قديمة ليست بإسلامية، وذهب بعض الباحثين إلى القول أنّ الإيزيدية طائفة أو طريقة إسلامية ارتدت عن الإسلام، وذلك بسبب بعض الرموز التي نراها مشتركة فيما بينها.

العراق بعد «««الفتح الإسلامي»»»

الحقيقة أنّ تلك الرموز التي نجدها في بعض الطوائف التي يُثار الحديث عن إسلاميتها، يرتبط بالتقيّة[15] التي مارستها الأديان القديمة بعد «««الفتح الإسلامي»»» للحفاظ على بقاء أفرادها، وركائز إيمانها القديم، فقد عقد المسلمون اتفاقات مع رعايا الأديان في العراق، وتمّ الحفاظ على الكنائس، ويمكن - قياسا بمعايير ذلك العصر - اعتباره نوعا من التعايش بين المسلمين والمسيحين واليهود وبقية الأديان في العراق، (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) [البقرة: 256]، فعلى سبيل المثال كان الخلفاء يحتفلون بنصب رأس الجالوت الجديد بمهرجان مشهور.[16]

مما تقدّم يمكن أن نستشفّ أنّ التصوّف أخذ شكله الحالي نتيجة تزاوج وتلاقح الماضي الحضاري، بدءا من الأساطير وانتهاء بالديانات والدولة فمجيئ الأديان السماوية، حيث كان ثالثها الدين الإسلامي الذي دخل العراق، وهناك تلاقح الماضي مع الحاضر الإسلامي. ونتيجة هذا التلاقح ظهرت عدة أشكال

14 ورد في تاريخ الطبري "في ذكر خبر المثنى بن حارثة وأبي عبيد بن مسعود" (وكان وجه فارس من أكره الوجوه إليهم وأثقلها عليهم، لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأمم)، تاريخ الطبري، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 2 (القاهر، مصر، دار المعارف، 1962)، ص 444 / 3

15 مصدر تَقَى، والتَّقِيَّة: الخشْية والخوفُ، (الفلسفة والتصوُّف) إخفاء الحقّ ومصانعة النّاس والتّظاهر بغير ما يُعتقد فيه خوفا من البطش أو الظُّلم، معجم المعاني.

16 نقرأ ما قاله الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي الأندلسي توفي 569 هجري، والذي زار بغداد في عهد الخليفة المستنجد بالله "566هجري" (إن رئاسة الجالوت صارت وراثية في عائلة حسداي اليهودية؛ فرئيس هؤلاء جميعا هو الربي(الرناني) دانيال بن حسداي الملقب سيدنا برأس الجالوت، ويسمّيها المسلمون سيدنا ابن داوود، لأنّ بيده وثيقة تثبت انتهاء نسبه إلى الملك داود، وهو يستمدّ سلطانه من كتاب عهد يوجّه إليه من الخليفة أمير المؤمنين). رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة عزرا حداد، دراسة وتقديم د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، ط1 (أبو ظبي – الإمارات العربية المتحدة، المجمع الثقافي، 2002) ص 301

دينية ومذهبية ترتبط كلّ منها بالظروف التي أفرزها الواقع الجديد من حكم وسيطرة المسلمين، وسنتحدث بالمجمل عن تلك الإفرازات وديناميّة ظهورها، حيث سيجري التركيز على عملية التفاعل بين الجديد «الإسلام» والقديم الذي سبق مجيئ الاسلام من أديان وفلسفات قديمة وجدت في العراق قبل الاسلام وتفاعلت معه بعد دخول المسلمين.

حين دخل المسلمون العراق وإيران بكلّ ما فيها من ثقافات عرقية ودينية وفلسفية كما أسلفنا. لم يكن من السهولة بمكان أن يستطيع الفاتحون الجدد الذين جاؤوا بثقافة الجزيرة العربية وحدها الإجهاز على ما في العراق من التعدّد الثقافي والديني والفلسفي بسهولة، أو لنقل لم يكن بنيّتهم ذلك. فعلى العكس من ذلك، أفرز هذا الوضع شكلا جديدا من الحضارة وقراءات متعددة للدين الجديد، بل قراءة جديدة للدين. وبالمجمل كانت تلك القراءة مزيجا مختلفا لتلاقح الميثولوجيا مع الفلسفة والدين. ويمكن القول إنّه اجتمع في العراق كلّ الإرث في الشرق، وكان "الفتح الإسلامي" بداية التشارك العربي مع بقيّة الإثنيات في العراق، ولكن هذا التشارك جاء كسُلطة تقوم بإدارة للحضارة، مُتسلِّحة بالقرآن كمعيار لها لتقييم الموجود في العراق. وهذا القرآن نفسه لا ينكر سواه من الأديان، ويمكننا أن نقرأ في عديد من النصوص القرآنية في الحديث عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وعن بني إسرائيل.[17] ويذكر النسّابون، كما أنّه ورد عن الرسول محمد أيضا، أنّه من ذرية إسماعيل في بعض الروايات[18]، وهذا يجعل رسول الإسلام من أبناء عمومة بني إسرائيل.

إنّ الثقافات والديانات السائدة في العراق حاولت التكيّف مع السلطان الجديد للمسلمين، أو مقاومتهم مقاومة ناعمة، تأخذ شكلا باطنيا، ويمكن أن نجد الخلاف الذي دبّ بين المسلمين في عهد عثمان بن عفان وما تلا مقتله، والذين وجد فيه القدماء أو ما يمكننا تسميتهم بـ «السكان الأصليين» فرصة لتمرير معتقداتهم القديمة ومقاومة السلطان الجديد للمسلمين، فانتسب الكثير من العراقيين إلى شيعة أهل البيت، ويمكننا ملاحظة شكوى الإمام علي من العراقيين في خطبه[19]، وكذلك يمكننا ملاحظة ظهور جماعات سياسية كالخوارج الذين اعتبروا أنّه يجب القضاء على معاوية بن أبي سفيان وعلي بن أبي طالب.

ولقد وجد أهل الثقافات القديمة في الاختلاف والصراع السياسي على السلطة فرصة، ليُلبِسوا لبوسهم من معتقدات وأفكار على الإسلام حفاظا على ماضيهم. ولعلّ هذا ما يُفسّر بدء الصراع على السلطة مع بواكير دخول المسلمين إلى العراق، فلم يكن وجود الإسلام قد تثبّت في العراق لزمن طويل بعد، بل إنّه مضى على وجوده حينها عشرات السنين فقط، مما يعني أنّ الزمن لم يُسهِم بدوره في إزالة القديم، بالإضافة

17 نقرأ في سورة البقرة، في الآيات التالي: 40، 47، 83، 122، 211، 246، وسورة المائدة في الآيات التالية: 12، 18، 32، 51، 72، 78، 110. وغيرها الكثير من الآيات.

18 ابن الأثير، تحقيق، د. محي الدين مستو ود. علي أبو زيد، مراجعة الشيخ عبد القادر أرناؤوط، ود. بشار معروف ط 1 (بيروت – دمشق، دار ابن كثير، 2010) ص 1/138

19 ينظر كتاب نهج البلاغة، منها ذلك خطبته الشهيرة في ذم أهل العراق، الشريف الرضي، نهج البلاغة، تعليق السيد محمد الحسيني الشيرازي، إعداد عبد الحسن دهسيني، (بيروت، لبنان، دار العلوم للتحقيق والنشر والطباعة، 2008) ص 106

إلى أنّ الإسلام ذاته لم يكن متطرّفا في إزالة القديم كونه يُعدّ نفسه مكمّلا للقديم من جهة ومجدِّدا من جهة أخرى، ويمكن أيضا أن نلاحظ أنّ «التصوّف الإسلامي» بدأ ظهوره مع التشيّع الذي تشكّل من بعض المسلمين العرب الذين دخلوا العراق والسكان الأصليين فيها، وهذا ربما يقود إلى معرفة منبع التصوّف، ولربما كان ردّة فعلٍ عليه. لكن المشترك أنّ مؤسّسي التصوّف هم من الفرس الذين كانوا أيضا منبع حركة التشيّع أيضا، فالمتصوّفة الأوائل كانوا في غالبيتهم إيرانيين[20]، ويمكننا أيضا ملاحظة المقاومة للدين الجديد عن طريق تغليف معتقدات قديمة بغلاف الدين الجديد كما نجدها في التقيّة.

من الواضح أنّ المزج أو تعدّد القراءات بدأت مع الخلاف والصراع على السلطة، وقد دخل السكان الأصليون والمسلمون هذه البلاد بعد السيطرة عليها ودخولها في الإسلام، والانقسام إلى شيعة وسنّة. كما أنّ دور الديانتين المسيحية واليهودية، التي دخل الكثير من أحبارهم ورجالات الدين منهم الإسلام، جليّ وواضح. وسنجد لهم أثرا خاصة في شروح النصّ القرآني والمواعظ التي كان يستخدمها وعّاظ المسلمين تحبيبا وأخذا للعِبَر، ولمّا تزل مستخدمة حتى يومنا هذا، وهي ما تعرف «بالإسرائيليات» ولكن نجد ذلك لدى الصوفية أكثر استخداما.

وسنجد تأثيرات طقوسية لأديان أخرى في المسلمين، وذلك كما هو مستخدم لدى الكرد من المسلمين في أجزاء كردستان، حيث إنّ النسوة الكرد لم يكنّ - حتّى الأمس القريب - يغسلن الثياب يوم الأربعاء، ولا يكنّسن المنزل ليلا حتى يُحرقن رأس المكنسة، وكنّ يحرّمن التصفير، ويحتفلون بيوم الأربعاء الأول من شهر نيسان، وهو ما يحتفل به الإيزيديون كيوم مقدّس.

«التصوّف الإسلامي» والحضور الإيراني في الدين الجديد

يبدو الإسلام في صيغته الصوفية «التصوّف الإسلامي» الأكثر تأثرا بالأديان القائمة في العراق. ومن أهمّ منتجات التمازج ذاك، أسباب عسكرية وسياسية ومجتمعية. ويمكن ملاحظة استغلال الصراع على الخلافة في تمرير طقوس الديانات القديمة من قبل المسلمين الجدد، عن طريق لبوس الإسلام للطقوس القديمة معتمدين على الباطنية للحفاظ عليها.[21]

استطاعت الأقليات الدينية التعايش مع المجوسية قبل الإسلام، كون المجوسية ديانة آرية غير تبشيرية، كذلك لم تأخذ تلك الأقليات الدينية، اهتمام «الفاتحين» الجدد كونهم لا يشكّلون خطرا سياسيا على «الفاتحين» من جهة، ولأنّ في الإسلام نصوصا تدعو للتعايش مع تلك الأقليات، لكنّ ما أخذ الأهمية القصوى لدى الفاتحين الجدد هم السكان الإيرانيون الأصليون، ومن كانوا يحكمون الإمبراطورية الساسانية من قبل،

20 علي الكاش، الصوفية والصفوية خصائص وأهداف مشتركة، (منشورات البرهان دليل الباحثين عن الحقيقة، 2014) ص 52

21 نجلاء لطفي، الفرق والمذاهب والجماعات الإسلامية القديمة، ط 1 (دار حروف منثورة للنشر الإلكتروني، 2017) ص 116.

وهؤلاء استطاعوا عن طريق انتمائهم إلى المذهب الشيعي إحداث نوع من التمازج بين طقوسهم القديمة والدين الإسلامي، وكونه يمثل المعارضة السياسية الإسلامية، ولكن هنا ينبغي الوقوف على العنصر الإيراني بسمة أوسع من المذهب السنّي «والأصل في خروج أكثر هذه الطوائف عن ديانة الإسلام، أنّ الفرس كانوا من سعة الملك، وعلو اليد على جميع الأمم...فأظهر قوم منهم الإسلام واستمالوا أهل التشيّع بإظهار محبّة آل البيت، واستشناع ظلم «علي» رضي الله عنه، حتى أخرجوهم عن الإسلام!»[22]. فإلى جانب المذهب الشيعي، نجد حضورا للإيرانيين في المذهب السنّي أيضا؛ فنجد البخاري والإمام الحنفي وغيرهما الكثير ممن ينتمون للمذهب السني، بل ويعتبرون من روّاده.

الملفت للنظر أنّ الإيرانيين يُعتبرون أوائل الصوفية[23]، كالحلاّج وجلال الدين الرمي، ونجدهم أيضا أئمة الفرقة النصيرية والموحدّين الدروز، ويمكننا ملاحظة تأثُّر كلتا الفرقتين بالتصوّف، وإن كنّا نرى أنّ التأثُّر متبادل، ومن الصعوبة بمكان تحديد الأسبقية. فالواضح أنّه ثمة قواسم مشتركة بين «التصوّف الإسلامي» والفرق الإسلامية التي يُثار النقاش حول إسلاميتها، والتي لجأت إلى إلباس أديانها القديمة لباسا إسلاميا[24]، وهذا ما جعلها عبر التاريخ عرضة للتكفير والوقوع في الشِرْك من قبل الطوائف الإسلامية الأكثر تمسّكا بأصول الدين الإسلامي. ونجد التأثير بين التصوّف وتلك الفرق في استخدام الرموز للتعبير عن معتقدات باطنية، وعند الذهاب إلى تفسير تلك الرموز نجدها متأثرة بأديان سبقت «الفتح الإسلامي» في وجودها في العراق، فمثلا نجد رمز النصيرية «س، م، ع»، والذي يعني أن سين هو سلمان الفارسي وهو الباب، وميم وتعني محمد وهو الله اللفظ، وعين وتعني علي وهو الله المعنى، وتقدس الطائفة النصيرية شخصية قاتل علي بن ابي طالب على أنه فصل اللاهوت عن الناس، وهذا شبيه جدا بصلب اليسوع في الديانة المسيحية، كما أنّها تبدو متأثرة بالديانات الوثنية القديمة.[25]

هذه الرمزية في الحقيقة واضحة في تأثّرها بالمسيحية، ومن الجدير أن نشير إلى شكل آخر من أشكال التأثر بالديانات القديمة عند العلويين في تركيا، وهي طقوس العبادة المترافقة مع الموسيقى والأناشيد المشحونة بالرموز الدينية الإسلامية، ونجد الرقص في التصوّف الإسلامي كطقس للعبادة مترافقا مع الموسيقى، وهذا يختلف طبعا من مجموعة صوفية إلى أخرى، ولكن الرقص قاسم مشترك بين الجميع[26]، ولكن الاختلافات ترتبط بالجغرافية والعنصر الثقافي والإثني. فنجد الطرق الصوفية القريبة من مناطق نفوذ الطائفة السُنّية تقلّ فيها الموسيقى، ولكنّنا نجد آثارا من الأديان التي سبقت الإسلام في هذه الطرق،

22 محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، (مصر، القاهرة، دار الفكر العربي، د.ت) ص 14

23 انظر: محمد حسن فلاحية، الصوفية في إيران حضورها وعلاقتها بالتشيع والتصوف الشيعي، (دبي، الإمارات العربية المتحدة، مركز المسبار للدراسات والبحوث، 2011).

24 انظر: رشيد الخيوّن، الأديان والمذاهب بالعراق، ط 1 (دبي – الإمارات العربية المتحدة، مركز المسبار للدراسات والبحوث، 2016).

25 محمد أحمد الخطيب، الحركات الباطنية في العالم الإسلامية، ط 2 (عمان، الأردن، مكتبة الأقصى، 1986)، ص ص 321-322

26 اياد محمد حسين، عامر محمد حسين، الرقص الصوفي ورمزية الحركات الراقصة "المولوية أنموذجا"، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، المجلد 4، العدد 3، 2014، ص 74

ونجد مثلا الطريقة النقشبندية في مناطق الكرد متأثرة بالإيزيدية التي بدورها تتأثر بالزردشية والميثرائية قبلها، والحقيقة أنّ الإيزيدية مزيج من هذه الأديان، ونرى أثرها واضحا في الطريقة النقشبندية، فمثلا نجد النقشبندية في شمال شرق سوريا تحتفل بيوم الأربعاء الأول من شهر نيسان، ومنها أنّ النقشبنديين يأخذون الخبز من التكيّة إلى بيوتهم وعوائلهم لتناولها بنيّة التبرّك، وهذا ما نجده عند الإيزيدية من القَسَم بالخبز، ومردّ هذا طبعا إلى التأثر بالزردشتية؛ الدين الذي جاء في المرحلة الزراعية.

الباطنية وآثارها

(الباطن: اسم من أسماء الله، كما جاء في الآية: "هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"[الحديد، 3]، ومعناه لغة: المحتجب عن أبصار الخلائق وأوهامهم فلا يدركه بصر ولا يحيط به وبهم...وقيل أنّ معناه: علم السرائر والخفيات، وقيل أيضا: هو العالِم بكل ما بطن...والباطني هو الرجل الذي يكتم اعتقاده فلا يُظهره إلا لمن يثق به).[27]

وباستقراء ومقارنة الأديان القديمة بالتصوّف يمكن ملاحظة أنّ التصوّف الإسلامي قد تأثّر بالأديان القديمة التي سبقت الإسلام، وكذلك نستطيع أن نخمن أنّ الباطنية كانت الأداة لتمرير بعض طقوس ومعتقدات الأديان تلك. ويمكننا ملاحظة الباطنية في الفرق التي انشقّت عن الشيعة الإمامية مثلا، كالفرقة النصيرية والموحّدين الدروز. كذلك نجد الإيزيديين كطائفة لم تجاهر بأنّها دين غير الإسلام إلاّ في العصور الحديثة. ويمكننا ملاحظة نوع من الباطنية في الإيزيدية أيضا، فمعظم أسماء أبناء وبنات هذه الطائفة، أسماء إسلامية صرفة، وبما أنّ الشباب الذكور هم الأكثر تعرّضا للمساءلة فإنّ جلّ أسمائهم إسلامية. والملفت هنا أنّنا سنجد اسم الحسين وعلي، وهي الأسماء الأكثر انتشارا، وهذا أيضا يدلّ على اغتنام فرصة الخلاف بين الشيعة والسنّة في بواكير «الفتح الإسلامي»، لتمرير معتقداتهم ومقاومة الدين الجديد. ولهذا نظر إليهم بعض الباحثين على أنّهم طريقة صوفية، ونظر إليهم آخرون على أنّهم طائفة مرتدّة، وقد قرّرت الدولة العثمانية خاصة* قرارات/ فرمانات عدّة لردعهم وإعادتهم إلى الدين الإسلامي.[28]

إذا يمكننا أن نرى الدافع نحو تبنّي الباطنية لدى الكثير من الفِرَق والطوائف التي سكنت العراق القديم، خشية الحروب التي كانوا يتعرّضون لها بسبب معتقدهم، هذا في ما يخصّ الطوائف والفرق التي يثار النقاش حول إسلاميتها، ولكن أيضا نجد الباطنية في معظم طرق التصوّف. وهناك طرق تمارس طقوسها بشكل سرّي تام مع أنّ الإسلام دين مجاهرة وإعلام وكلّ طقوسها علنية، رغم أنّه لم يعد هناك خطر يهدّدها في هذا العصر، لكنّ الباطنية والسرّية أخذت نوعا من طقس داخل الطقس، ويمكننا رؤية ذلك لدى الطريقة النقشبندية

27 محمد أحمد الخطيب، مصدر سابق، ص 19

28 كتاب عن الفرمانات الإسلامية ضد الأيزيديين، صباح كنجي، موقع الحوار المتمدن https: //goo.gl/EmRdFr (2017/8/13).

مثلا[29]، فنراهم يمارسون الأوراد بوضع غطاء على الرأس، والرابطة بإغماض العين وممارسة الرابطة، وربما يُفهم من هذا أنّه نوع من الخلوة والتأمّل الفردي، لكنّ الطقوس التعبّدية الجماعية أيضا سرية، فلا يمكن لأيّ شخص مسلم حضور الختمة والتواجيه، إلاّ إذا كان الشخص قد تاب على يد شيخ الطريقة[30]، وكان منتميا للطريقة، بالإضافة إلى إجراءات أخرى، فيها نوع من السرّية، فمثلا لا يحقّ للجميع إجراء الختمة، إلا إذا منح الشيخ إذنا في ذلك، والتوبة على يد الشيخ هي بمثابة البيعة، وهذا يذكّرنا بالفرق الإسلامية التي كانت تنشر دعوتها سرّا، ومن ثمّ تحاول الاستيلاء على السلطة؛ فمنهم من كان ينجح، ومنهم من كان يفشل.[31]

على كل حال، نجد الباطنية قاسما مشتركا بين الفرق والطوائف التي يُثار النقاش حول إسلاميتها، وبين الطرق الصوفية، ويمكننا ملاحظة التزاوج بين الإسلام والأديان القديمة في الطرق الصوفية، ولذا نجد كيف تدافع الطرق الصوفية عن كونها مسلمة، وأنّها بطقوسها الخاصة، إنما تستلهم قراءتها الخاصّة من الشريعة الإسلامية من قبيل مقولة «الطريقة هي عين الشريعة».[32]

والحقيقة، لا يمكن لأحد أن يغفل القواسم المشتركة ما بين القديم والجديد في الطرق الصوفية الإسلامية، والتي لابدّ أنّها وجدت متنفّسا لها في التصوّف الإسلامي عن طريق الباطنية بشكلها الادعائي وشكلها السرّي.

بغضّ النظر عن المكوّنات الفلسفية والدينية التاريخية التي أسهمت في إنشاء التصوّف الإسلامي، فإنّه من الصعوبة بمكان حصر المشارب الفلسفية والدينية في أديان ومذاهب فلسفية قديمة محدّدة بعينها، ولكن يمكننا القول إنّ الفلسفات والأديان الإيرانية لم تأخذ نصيبها الوافي من البحث في إطار منشأ التصوّف، وذلك كون الأديان الثلاثة «اليهودية والمسيحية والإسلام» أخذت جلّ الاهتمام، لعدّة أسباب، منها أنّ هذه الأديان لها أتباع كثر، ما يجعل الباحثين يجدون سهولة في المقارنة. وعلى كل حالّ، فإنّ «التصوّف الإسلامي» أخذ حصة كبيرة من الإسلام نفسه، وسنرى المنظّرين للتصوّف الإسلامي يستشهدون بآيات قرآنية وأحاديث الرسول للدلالة على أنها غير متناقضة مع الإسلام، فمثلا يستدلّون بحديث الإحسان «أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(رواه البخاري ومسلم، عن أبي هريرة). ونجد من يمارس التصوّف ويسمّون التنسّك والتعبّد أو الرياضات الصوفية بالسلوك للوصول إلى مرحلة العرفان، وهذا مما يدعونا إلى أن نفهم أنّ هناك مزجا بين الجديد والقديم، فمثلا لا نجد مشتركات في الغاية لدى الشريعة وهذه الطريقة الصوفية التي ذكرناها على سبيل المثال.[33]

---

29 محمد أمين الكردي، تنوير القلوب، ط 1، (حلب، دار القلم العربي، 1991)، ص ص 463، 468

* معظم الحملات ضدّ الإيزيديين كانت في عهد العثمانيين، ويُحصي الإيزيديون 73 فرمانا ضدّهم كان آخرها حملة داعش في آب 2015، والتي نكلت بهم وقتلتهم، وباعوا نسائهم في أسواق النخاسة في الرقة والموصل.

30 محمد أمين الكردي، مصدر سابق، ص 464

31 محمد أحمد الخطيب، مصدر سابق، ص 435

32 محمد أمين الكردي، مصدر سابق، ص 466

33 انظر: محمد أمين الكردي، مصدر سابق، فصل في فضل الأولياء، ص 469 وما بعد.

سنرى المتصوّفة من المريدين يمنحون أدوارا للطريقة ونهجها تأخذ أهمية أكبر من الشريعة، فمثلا «ألاّ يعترض (المريد) عليه (شيخ الطريقة) فيما فعله ولو كان ظاهره حراما، ولا يقول لمَ فعلت كذا، لأنّ من قال لشيخه لم؟ لا يفلح أبدا».[34] ويساعد الشيخ مريديه على قول الشهادة عند سكرات الموت، حيث يقولون إنّ الإنسان المسلم عندما تأتيه سكرة الموت، فإنّه يشعر بعطش شديد، ثم يأتيه الشيطان الذي يحمل شربة ماء يعرضها على هذا المسلم لكي يتبعه ويتخلّى عن دينه، فإن كان هذا الشخص مريدا مخلصا غير منافقٍ مع شيخه، فإنّ الشيخ يطرد الشيطان ويلقّنه الشهادتين، ومن ثم يخلّص الشيخُ مريدَه من أصعب امتحان يراه، وهو مقبل إلى عالم البرزخ فالآخرة. وهنا يقول صاحب الفتوحات المكيّة (ما حرمة الشيخ إلاّ حرمة الله * فقم بها أدبا لله بالله هم الأدلاء والقربى تؤيدهم * على الدلالة تأييدا على الله الوارثون هم للرسل أجمعهم * فما حديثهم إلا عن الله كالأنبياء تراهم في محاربهم * لا يسألون من الله سوى الله، فإن بدا منهم حال تولههم * عن الشريعة فاتركهم مع الله لا تتبعهم ولا تسلك لهم أثر).[35]

ولا يمكننا في هذا البحث الوقوف على كل طريقة صوفية على حدة، ونقاش مبادئها ومقارنتها مع ما سبق الإسلام من أديان وفلسفات، فحَسْبُنا أن نضع في الاعتبار الجغرافية التي ولدت فيها كل طريقة من الطرق الصوفية، ومقارنتها مع ما سبق الإسلام، وسنجد آنذاك كيف مرّرت معتقدات قديمة عن طريق الطرق الصوفية، ووجدت لها مجالا داخل المسلمين حتى نسي أصحابُها المعتقد القديم، واعتُبر شيئا إسلاميا صرفا لدى معتنقي هذه الطرق الصوفية. وسنجدهم متشدّدين لمعتقداتهم التي يعتبرونها إسلامية، وهذا التشديد سنجده لدى تلك الطوائف التي يثار الشكّ حول إسلاميتها أيضا، وسنجد أيضا تشابها في المعتقد وبعض الرموز لدى المتصوفة وتلك الطوائف، مما يقيم الدليل على وحدة منشأها، ذلك أنّ التصوّف كان أداةً للأديان القديمة للحفاظ على نفسها مع مجيئ «الفتح الإسلامي».

لنتوقف عند بعض المسائل الرمزية، حيث تتشابه الطرق الصوفية وتلك الطوائف، فمثلا المريدون يقبّلون يد الشيخ، ويقولون بعصمته، وفي ذلك علامة على وجود تشابه مع الطائفة النصيرية التي تقبّل يد إمامها وتقدّسه، وإنما يختلف التصوّف الإسلامي عن تلك الطائفة مثلا في الاعتقاد بأنّ الشيخ ليس له أية طبيعة إلهية، بينما نجد من يروي أنّ تلك الطوائف الأخرى ربما تصل في تقديس أئمتها إلى حدّ الألوهية أو العصمة، بينما نجد المتصوفة يعتبرون الشيخ محفوظا من الله؛ أي أنّه تحت حفظ الله ورعايته، وهذا أيضا يعني العصمة بشكل أو بآخر[36]، وهذه العصمة تشترك فيها الطرق الصوفية والطوائف التي يثار الشك حول إسلاميتها مع الشيعة الإمامية الذين يعتبرون أئمتهم معصومين. وهكذا نجد أنّ كلّ الذي سبق من طرق صوفية وطوائف منشقّة عن الشيعية الإمامية كالنصيرية والدروز والشيعة الإمامية يشتركون في عصمة

34 المصدر نفسه، فصل في آداب المريد مع شيخه، ص 587

35 محي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، الجزء 2، (نسخة إلكترونية، مكتبة الشيعة https: //goo.gl/QBWSdT) ص 364

36 انظر: عبد الوهاب الشعراني، الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، تحقيق طه عبد الباقي سرور، ومحمد عيد الشافعي ج 1، ط 1 (بيروت، لبنان، مكتبة المعارف، 1988)، فصل من أدب الطريق استئذان الشيخ، ص 183 وما بعد.

الأئمة مع فارق بين الأشخاص الذين يعصمونهم، فسنجد الأنبياء لدى الصابئة المندائيين يكونون من طبيعة غير بشرية، وكذلك نجد طبقة الشيوخ لدى الإيزيديين أيضا ليسوا من طبيعة بشرية وأنّهم مخلوقات أشبه بالملائكة، نزلوا من السماء، ولهذا لا يستطيع أبناء هذه الطبقة التزاوج مع مَن سواهم من الطبقات الأخرى، كطبقة المريدين.[37] وعندما نقرأ الأساطير السومرية سنجد أشخاصا نزلوا من السماء، وهم كائنات لاهوتية كانوا يُقدَّسون لدى السومريين وغيرهم في حضارات بلاد ما بين النهرين وإيران القديمة.

سنرى المعتقدات الصوفية الإسلامية تدخل في طور الوحدانية، ونحن نقول بحصول تطوّر من مفهوم الوحدانية لله، الخالق لكلّ شيء والمتفرّد حيث لا شريك له، إلى حالة اعتقادية أشدّ تعقيدا، وهي وحدة الوجود، والاتحاد، والحلول. وهذه المفاهيم والمعتقدات نكاد لا نراها بهذا الوضوح فيما قبل ظهور التصوّف، ولكن يمكننا أن نجد ما يشبهها في الأديان والفلسفات القديمة ليأتي المتصوّفة الإسلاميون ويطوّرونها، وهذا ما جعل الكثيرين منهم يدفع الثمن حياتهم كالصوفي حسين بن حلاّج المنصور. فوحدة الوجود وغيرها، وهي تعني وحدانية الوجود خالقا ومخلوقا، لم تكن واضحة المعالم كما قال بها المتصوّفة المسلمون، إنما كانوا يقتربون من ذلك. فهيراقليطس مثلا أشار إلى أنّ الطبيعة هي ذاتها الله[38]، وسنجد المتصوّفة الإسلاميين وحدهم من نرى فيهم من يتبنى كلّ الأديان ويعتقد أنّ جميعها حقّة، وذلك كون جميع الأديان هي سائرة نحو الخالق وهكذا نجد الشاعر الصوفي الكردي الملا الجزري يقول[39]:

(القلب واحدٌ فالعشق سيكون واحدا، والعاشقون يكفيهم حبيبٌ فحسب، وبذلك تكون القبلة واحدة، والقلوب يكفيها محبوبٌ فحسب، بعضهم يأتي من دير النصارى، ويقصدُ بعضٌ آخر معبد اليهود، أما أنا فلست من هؤلاء ولا أولئك، يكفيني باب الخمّارة فحسب).

وكذلك نجد ابن عربي يقول:[40]

لقد صار قلبي قابلاً لكل صورةٍ فمرعى لغزلانٍ ودير لرهبان

وبيت لأوثانٍ وكعبـــة طائفٍ وألواحَ توراةٍ ومصحفَ قرآن

أدين بدينِ الحبّ أنّى توجّهت ركائبُه فالحب ديني وإيمـاني

37 انظر: رشيد الخيّون، مصدر سابق، فصل المندائية، وفصل الإيزيديين.

38 د. حسن كامل إبراهيم، التغير: مفهومه وطبيعته في فلسفة هيراقليطس وأثره على الفكر السفسطائي، بحث، معابر، https: //goo.gl/Z1FHJX، (2017/10/12).

39 خالد جميل محمد، الجزري شاعر الحبّ والجمال، ط 1 (دمشق، سوريا، دار الزمان 2006)، ص 82

40 محيي الدين بن عربي، ترجمان الأشواق، اعتنى به عبد الرحمن المصطاوي ط 1 (بيروت، لبنان، دار المعرفة، 2005)، ص 62

الخاتمة

إنّ الصراع الذي حدث بين المسلمين على الخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان مثّل منعطفا تاريخيّا أثّر في الأديان والثقافات والإثنيات التي كانت سائدة في العراق، وذلك في مستويين: أوّلها تمرير بعض المعتقدات أو الحفاظ على بعضها، وبما ينسجم مع الدين الجديد، وثانيهما كانت عملية مقاومة ضدّ الدين الجديد عن طريق المقاومة التقيّة والباطنية والسياسية. وهذا ما يُفسّر إعادة إنتاج الفلسفات القديمة الموجودة في العراق، وهي ترتدي لبوسا إسلاميا ليس من السهولة بمكان التفريق بينها، وهنا نفهم لماذا قُتل الحلاّج وغيره من المتصوّفة الذين أعادوا إنتاج المعتقدات القديمة في إطار آخر يتماشى مع الإيمان والدين الإسلامي. وعندما كان المتصوّفة تعرض عقيدتها على العلن، فإنهم كانوا يتعرّضون للقتل بتهمة الكفر أو الشرك، أو ما يُسمّى بالزندقة؛ فالتصوّف هو الشكل الثاني من ولادة المزيج الإسلامي الجديد مع العراق القديم.

كما يمكننا القول إنّ التصوّف الإسلامي هو المزيج المتطوّر من الأديان والفلسفات القديمة التي وجدت فيما يعرف اليوم بالعراق وإيران، وأخذ يتطوّر نتيجة ظروف تاريخية وثقافية معينة، جعلت التصوّف كالجين الوراثي الذي لم يكشف العلم بَعْدُ أسراره وإنّ البحث في الدين واللاهوت يتطلّب دراسة التصوّف دراسة عميقة، وربما كان أوّل المتصوّفة الذي عرفهم التاريخ هو جلجامش الذي رأى فناء صديقه أنكيدو وراح يبحث عن الخلود وعن سرّ الحياة، فلبس جلود الحيوانات وسافر في الأرض بحثا عن الحكمة.

ومن ثمّ، نجد في التصوّف بحثا عن الحكمة، فهي تنهل من الفلسفة، وهي تبحث عن الله للوصول إلى مرحلة العرفان، وهذا طابع الدين، والتصوّف له ظروفه السياسية لينمو فيها أو ينحسر ويأخذ أشكالا مختلفة، لكنّ الجوهر يظلّ واحدا.

المصادر والمراجع:

1. ابن الأثير، تحقيق، د. محي الدين مستو ود. علي أبو زيد، مراجعة الشيخ عبد القادر أرناؤوط، ود. بشار معروف ط 1 (بيروت – دمشق، دار ابن كثير، 2010).

2. أحمد سوسة، ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق (بيروت – لبنان، دار الساقي، ط 1، 2001).

3. توفيق وهبي، الأيزيدية بقايا الميثرائية، ترجمة: شوكت ملا اسماعيل حسن (كردستان – السليمانية، دار سردم للطباعة، 2010).

4. رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة عزرا حداد، دراسة وتقديم د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، ط1 (أبو ظبي – الإمارات العربية المتحدة، المجمع الثقافي، 2002).

5. رشيد الخيوّن، الأديان والمذاهب بالعراق، ط1 (دبي–الإمارات العربية المتحدة، مركز المسبار للدراسات والبحوث، 2016).

6. السيد الباز العريني، الدولة البيزنطية (بيروت – لبنان، دار النهضة العربية، د.ت).

7. الشريف الرضي، نهج البلاغة، تعليق السيد محمد الحسيني الشيرازي، إعداد عبد الحسن دهسيني، (بيروت، لبنان، دار العلوم للتحقيق والنشر والطباعة، 2008).

8. الطبري، تاريخ الطبري، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 2 (القاهر، مصر، دار المعارف، 1962).

9. طه باقر، د. فوزي رشيد، د. رضا جواد هاشم: تاريخ إيران القديم (بغداد، مطبعة جامعة بغداد، 1972).

10. عبد الوهاب الشعراني، الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، تحقيق طه عبد الباقي سرور، ومحمد عيد الشافعي ج 1، ط 1 (بيروت، لبنان، مكتبة المعارف، 1988).

11. علي الكاش، الصوفية والصفوية خصائص وأهداف مشتركة، (منشورات البرهان دليل الباحثين عن الحقيقة، 2014).

12. د. عمر يحي محمد، قراءة جديدة لآخر جولات الصراع بين القوتين العظميين في العصور الوسطى، (المملكة العربية السعودية، منشورات جامعة الملك عبد العزيز، د.ت).

13. مالك بن أنس، موطأ الإمام مالك، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، المجلد 2، ط 1 (أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية، 2004).

14. محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، (مصر، القاهرة، دار الفكر العربي، د.ت).

15. محمد أمين الكردي، تنوير القلوب، ط 1، (حلب، سوريا، دار القلم العربي، 1991).

16. محمد حسن فلاحية، الصوفية في إيران حضورها وعلاقتها بالتشيع والتصوف الشّيعي، (دبي، الإمارات العربية المتحدة، مركز المسبار للدراسات والبحوث، 2011).

17. محي الدين بن عربي، ترجمان الأشواق، اعتنى به عبد الرحمن المصطاوي ط 1 (بيروت، لبنان، دار المعرفة، 2005).

18. نجلاء لطفي، الفرق والمذاهب والجماعات الإسلامية القديمة، ط 1 (دار حروف منثورة للنشر الإلكتروني، 2017).

مصادر ومراجع إلكترونية:

1. محي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، الجزء 2، (نسخة إلكترونية، مكتبة الشيعة .https://goo gl/QBWSdT) ص 364

الدوريات والمقالات:

1. إياد محمد حسين، عامر محمد حسين، الرقص الصوفي ورمزية الحركات الراقصة «المولوية أنموذجا»، بحث، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، المجلد 4، العدد 3، 2014

2. د. حسن كامل إبراهيم، التغير: مفهومه وطبيعته في فلسفة هيراقليطس وأثره على الفكر السفسطائي، بحث، معابر، 12) ،2017/10/https://goo.gl/Z1FHJX).

3. صباح كنجي، كتاب عن الفرمانات الإسلامية ضد الأيزيديين، مقال، موقع الحوار المتمدن https:// (13 2017/8/goo.gl/EmRdFr).

4. محمد حسن فلاحية، الصوفية في إيران حضورها وعلاقتها بالتشيع والتصوف الشّيعي، (دبي، الإمارات العربية المتحدة، مركز المسبار للدراسات والبحوث، 2011).

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018

All rights reserved © 2018